**المحاضرة الثانية: مفهوم النظم في الدراسات اللغوية البلاغية.**

**1)- مكانة اللفظ والمعنى عند الجرجاني:**

**أ) - مكانة اللفظ :**

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الألفاظ لا تنسب لها صفة الفصاحة إلا مع ائتلافها مع بعضها البعض في التركيب، معللا ذلك بأن هناك طبقات من الناس يتداولون ألفاظا للقدماء من غير علمهم بمعانيها التي تدل عليها تلك الألفاظ والعبارات، وحتى وإن طلب منهم تفسيرها، فلا يقدمون تفسيرا أصح لها . ومعنى ذلك أنه قد يرى البعض أن مزية الكلام إنما يكون بجزالة اللفظ ، أو لكونه منظما على طريقة مخصوصة " ولقد بلغ من قلة نظرهم أن قوما منهم لما رأوا الكتب المصنفة في اللغة قد شاع فيها أن توصف الألفاظ المفردة بالفصاحة ، و روى أبو العباس أن ثعلبا قد سمى كتابه الفصيح ، مع أنه لم يذكر فيه إلا اللغة والألفاظ المفردة ، وكان محالا إذ قيل السمع أفصح من الشمع أن يكون ذلك من أجل المعنى" ويضيف الجرجاني أن الذي هو معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى بدلالة قولهم ، فصيح وأعجم ، وقولهم أفصح الأعجمي ...إلخ إذ صرح به " ثم لو كانت الفصاحة حقا ميزة للكلمة المفردة من حيث هي ألفاظ ونطق لسان ، لكان للحركات دور في إضفاء المزية للنظم ذلك أنك لو قلت وقفت أفصح من لفظة أوقفت فالحال هنا أنك جعلت الفصاحة "للواو" ، و"القاف" ، و"الفاء" ، ومنعت صفة الفصاحة للفظة الثانية لدخول الهمزة فيها وهذا بطبيعة الحال خطأ .

فالجرجاني رفض أن تكون صفة الفصاحة للفظ من حيث هو لفظ مفرد ، فاستبدلها بلفظة الاستحسان ، فاللفظ يستحق صفة الشرف والمزية لكن بشروط :

1)/ حسن تلاؤم حالات اللفظة مع حالات الألفاظ المجاورة لها في النظم ": إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث كلم مفردة وتثبت لها الفضيلة وخلافها في

. ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ " إن الألفاظ المفردة لا تحقق المعنى والفصاحة إلا من خلال تعلقها مع غيرها ، وجعل فصاحة الألفاظ داخل التركيب فإذا قرأ قارئ قوله تعالى: "واشتعل الرأس شيبا" فلفظ اشتعل لم توجب إسناد الفصاحة له بمفرده ، بحكم أن المعنى غير واضح ، ومن أجل فك اللبس عن هذه اللفظة ننظر إلى اللفظة التي تليها أي مدى تعلقها مع غيرها من الألفاظ في التركيب .

ويؤكد عبد القاهر " أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى ":" واشتعل الرأس شيبا" ، فإنه لا يجد الفصاحة التي تجدها إلا من بعد أن تنتهي الكلام إلى آخره ، فلو كانت الفصاحة صفة للفظ اشتعل لكان ينبغي أن يحسها القارئ فيه حال نطقه به ..

- 2)/ أن لا يكون اللفظ وحشيا أو عاميا سخيفا ، بعيدا عن أوضاع اللغة ، المتعارف عليها يقول الجرجاني :" ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا" .

- 3)/ أن تترتب الألفاظ في الكلم كما تترتب المعاني في النفس " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاءمت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " ويقول ": فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول حلو رشيق ، وحسن أنيق وعذب سائغ ...فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وظاهرة الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء إلى فؤاده .

4)/ أن تكون الألفاظ مألوفة بين الناس في زمانهم ، وتداولتها ألسنتهم " وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعد وتمطا واحدا وهو أن يكون اللفظ مما يتعارف الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم"

ومجمل القول أن اللفظ لا يستحق المزية إلا مع غيره من الألفاظ في التركيب ومع مطابقته لمقتضى الحال، أضف إلى ذلك الترتيب في الكلم ، بحيث تترتب الألفاظ فيها كما تترتب المعاني في النفس لذا تعرف معاني الألفاظ من خلال ضم بعضها إلى البعض .

أما السيوطي فيعتبر أن اللفظ ": ما خرج من الفم إن لم يشمل على حروف فصوت، وٕإن اشتمل على حرف، ولم يفد معنى فقول ، فإن كان مفردا فكلمة أو مركبا من اثنين ولم يفد نسبة مقصودة لذاتها فجملة أو أفاد ذلك فكلام ، أو من ثلاثة فكلم " .

**2)- مكانة المعنى عند الجرجاني :**

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الشأن كله للمعاني وأن الألفاظ مرتبة على الورق ، وٕاذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة في ذهن الخطيب ، ومرتبة في ذهن الكاتب ، وأن اللسان تجري بها مرتبة إذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة ، فإذا رأيت المعاني ترتيبها الطبيعي حصلت على صورة خاصة في التأليف يرجع الحسن فيها إلى ترتيب المعاني ، لا إلى انتقاء الألفاظ " فإذا قسموا الفضيلة البلاغية بين اللفظ والمعنى فقالوا معنى لطيف ، ولفظ شريف إلا أنهم يريدون ترتيب الألفاظ حسب ترتيب الفكرة ، ومع التجوز حذفوا الترتيب ، فقالوا " اللفظ والفكرة أو اللفظ والمعنى فإذا قالوا لفظ متمكن أرادوا أن معناه ملائم لما يليه ولما سبقه إذا قالوا لفظ قلق فهو غير مطمئن في موضعه ".

فاللفظ المفرد عند الجرجاني لا يؤدي المعنى إلا إذا أتى في السياق، بحكم أن الكلمات لا تستمد دلالتها إلا من خلال علاقاتها بالكلمات السابقة واللاحقة لها "وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم.

ويؤكد عبد القاهر أن المعنى هو كل شيء ، وأن اللفظ بمعنى الجرس والصوت لا قيمة له ، إن كانت هناك قيمة فلما يحمل من معنى هذا السؤال في الشكل الذي وصف به، كونه يتجه به [المعنى] إلى ناحيتين : الأولى : اللفظ في جرسه وصوته ووقعه على الأذن، وتأليف حروفه ، وعدم المنافرة فيها ، والثانية : تكمن في الدلالة اللفظ على المعنى الذي يحمله بالفعل أو القوة على حد تعبير المناطقة ، ويقصد بالقوة ما يمكن أن يخرج به اللفظ إلى المعاني الأخرى كالإستعارة والمجاز وٕإن المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح، عائدة في الحقيقة إلى معناه"، ومما يؤكد على اهتمام الجرجاني بالمعنى اعتباره للفصاحة أنها لمعاني الكلام وهو ما تدل عليه الألفاظ ، وهذا ما أطلقت عليه اسم المعنى ، بحكم أن الكلام على ضربين.

والمعاني بالجملة نوعان، نوع ظاهري وآخر مجازي [معنى المعنى]، وهذا الأخير يلعب دورا فعالا في تحقيق المعنى وتقويته ، شريطة أن تناسب الألفاظ المقام الذي نسقت فيه . فالمعنى الظاهري تصل أنت إلى دلالته دون واسطة ، أما المعنى الثاني فهو [معنى المعنى] ذلك أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر " فإذا أ ريتهم يجعلون المعنى كالجواري ، والألفاظ كالمعارض لها والمخبر ، فاعلم أنهم يصفون كلا ما قد يفخمون به أمر اللفظ ، ويجعلون المعنى ، أعطاك المتكلم أغراضه فيه عن طريق " معنى المعنى" فإذا أعمد قائل إلى القول " رأيت أسدا " ، فإنما المراد من ذلك ليس السبع ، بل سيق هذا اللفظ للتعبير عن معنى معين والتأكيد عليه ، فجاء على سبيل التشبيه ، فبالغ قائله إذ أنه جعل الذي رآه بمنزلة الأسد في الشجاعة والقوة " إن الحقيقة أن يقر اللفظ على أصله في اللغة ، والمجاز أن يزال عن موضعه ، ويستعمل في غيرها ما وضع له مجمل القول أن الجرجاني لم يفصل بين اللفظ والمعنى ، فاعتبرهما أساس النظم ، بحيث عندما وضع هذه النظرية بحث عن دلائل الإعجاز في القرآن ، فتوصل بتفكيره العميق إلى إبراز وجه النظم الذي يجمع بين اللفظ والمعنى معا ولا يمكن الفصل بينهما بحكم أن الدلالة تتشكل من خلال تناسق القضيتين معا " وكان واجبا علم ذلك أن يعلم أن الفصاحة تجب لها من أجل معانيها لا من أجل أنفسها ، لأنه محال أن يكون سبب ظهور الفصاحة فيها تعلق معانيها بعضها ببعض ، ثم تكون الفصاحة وصفا يجب لها لأنفسها لا لمعانيها.

**-3)- جدلية اللفظ والمعنى :**

من المتعارف عليه أن الدراسات كانت تركز جل اهتماماتها على ما يسمى بالشكل فيما لا يكاد يكون للمعنى وجود في الد راسة ، خاصة لدى الغرب ، وكذلك الأمر يقع بالمثل على العرب إذ اهتموا بالشكل (القواعد النحوية ) ، ثم توسعوا بالدراسة حول ما يتعلق بالمعنى ، خاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، فبحثوا عن سر الإعجاز فكثرت الآراء حوله وتشعبت إلى عدة اتجاهات منها ما يقر بأن الإعجاز إنما يكمن في اللفظ ومن ما يرى أنه يرجع إلى المعاني، وهناك من جعل وجه الإعجاز في اللفظ والمعنى معا .

إن الدلالة التي سعى عبد القاهر للكشف عنها إنما تشكل من تعلق اللفظ والمعنى ، وانسجامهما إذا الإنسان عندما يكون بصدد الإبلاغ عن أفكاره التي تحمل معنى ، فإنه يحتاج إلى ألفاظ تكون بمثابة أوعية للمعاني "إنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحدو على ترتيبها الألفاظ في نطقك " فالألفاظ تترتب بعد ترتيب المعاني في النفس أولا . فالجرجاني يرى أن السامع إذا ما رأى المعاني تترتب في نفسه بترتب الألفاظ في سمعه ظن عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ ، وأن الترتب فيها مكتسب من الألفاظ ، ومن ترتبها في نطق المتكلم ، وهذا ظن فاسد ممن يظنه ، ويبرر رأيه في ذلك أن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام ، والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع ...وأنه محال أن يكون الترتيب فيها تبعا لترتيب الألفاظ ، مكتسبا عنه ، لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني ، وأن تقع في نفس الإنسان أولا ، ثم تقع المعاني من بعدها، وتاليه لها بالعكس، مما يجعله عاقل.

وبناء على ما سبق ، فإن المعاني هي الجوهر في رأي الجرجاني، فالألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة ، بحكم أن المعاني هي السابقة لعملية التفكير باللفظ لذا تتبع الألفاظ المعاني . \_